مجلة جامعة بابل للعلوم الإنسانية، المجلد ٢٦، العدد ٧ :٢٠١٨.
Journal of University of Babylon for Humanities, Vol.(26), No.(7):2018.

The Interrogative Eloquence & Religion Meanings in Al – Sherif Al – Redhy Poetry

Fatin Fadhil Kadhim
Department of Arabic Language/The Education College for Human Scientific/ Babylon University
dbabil26@gmail.com

Submission date: 26/26/2018 **Acceptance date**:28/6/2018 **Publication date**: 16 /12/2018

Abstract

Al-Sherif Al-Redhy was one of the Islamic religion scientists and he had an extensive Islamic culture and deep knowledge with the religion sciences according to his affected with al-Quran style, converses of the prophet Mohammed and speech of Al-Imam Ali (vigils and peace of god on them). Al-Sherif Al-Redhy impressionable was clear by his mimic to the great eloquence formulation as well as the appearance of the religion meanings through ethics and behavior of Al-Sherif Al-Redhy, so this was the reason behind the predominance of religion meanings on his poetry.The interrogative style is one of the eloquence styles that used by Al-Sherif Al-Redhy poetry especially praise and lament where the interrogative eloquence appeared clearly in stabilization the religion meanings in his praise and lament.

Key Words: Al-Sherif Al-Redhy, poetry, religion meanings, praise, interrogative eloquence, lament.

بلاغة الاستفهام والمعاني الدينية في شعر الشريف الرضي

فاتن فاضل كاظم
قسم اللغة العربية/ كلية التربية للعلوم الإنسانية/جامعة بابل

الخلاصة

كان الشريف الرضي عالماً من علماء الدين الإسلامي وله ثقافة إسلامية واسعة ومعرفة عميقة بالعلوم الدينية لتأثره بأسلوب القرآن الكريم وأحاديث النبي محمد وكلام الإمام علي (صلوات الله وسلامه عليهما) من خلال تقليده الواضح للصياغة البلاغية الرائعة فضلاً عن ظهور أثر المعاني الدينية في أخلاق الشريف الرضي وسلوكه فكان ذلك سبباً في غلبة المعاني الدينية على شعره. من أبرز الأساليب البلاغية التي استعملها الشريف الرضي في شعره هو أسلوب الاستفهام لا سيما في قصائد المديح والرثاء ، فبلاغة الاستفهام تظهر واضحة في تثبيت المعاني الدينية في مدائحه ومراثيه.

الكلمات المفتاحية : الشريف الرضي، الشعر، المعاني الدينية، المديح، بلاغة الاستفهام، الرثاء.

Journal of University of Babylon for Humanities (JUBH) by University of Babylon is licensed under a
Creative Commons Attribution 4.0 International License

١. المقدمة

الاستفهام لغة طلب الفهم، أو معرفة ما هو خارج الذهن يقال:" استفهمه، سأله ان يفهمه. وقد استفهمني الشيء فأفهمته وفهمته تفهيما "[١/ مادة فهم]، فالاستفهام في حقيقته: طلب الفهم، والفهم لغة: " تصور المعنى من لفظ المخاطب" [١٤٢/٢].

والاستفهام هو احد أساليب الطلب وهو كلام يدل على طلب فهم أو طلب ارتسام صورة ما خارج الذهن،[٣ /١: ١٧١] أو هو " طلب حصول صورة الشيء في الذهن فان كانت تلك الصورة وقوع نسبة بين الشيئين أولا وقوعها فحصولها هو التصديق وإلا فهو التصوّر"[١٨/٢].

وللاستفهام قيمة جمالية يضفيها على النص لما يتميز به من قوة الظهور وحسن الدلالة، ذلك ان التعبير بأسلوب الاستفهام ابلغ منه بالإخبار المباشر، كما انه يحقق التواصل بين المتكلم والمتلقي فيصبح المتلقي بدوره فاعلا في الحوار على العكس من الأسلوب الخبري الذي يكون فيه المتلقي مستمعا فقط.

واستعمال هذا الأسلوب مجازا " يكسب المعاني طبيعة تختلف عما هي عليه في صورتها الخبرية، فتجعلها أكثر حيوية، وتزيد من الإقناع والتأثير بها، وذلك لما في هذا الاستعمال من إثارة للسامع، وجذب لانتباهه، ومن إشراكه في التفكير ليصل بنفسه إلى الجواب من دون ان يملى عليه "[٤/ ٢: ١٠٣].

والاستفهام أسلوب غني ثري، وفيه جذب للانتباه وله القدرة على إيصال المعاني للمخاطبين زيادة على فائدته لما يحدثه من إثارة وتأثير، ذلك ان " السؤال هو مفتاح الوجود، به تبدأ حركة الحياة ومنه تتشكل للإنسان قيمته، وبه ينطلق العقل مثيرا ومجادلا الرؤى الحاكمة على الكون والحياة والتأريخ والإنسان، حتى تتوالد المعرفة ويتناسل الفكر من دون توقف أو جمود "[١٢٧/٥].

ويكون الاستفهام عن طريق مادة (سأل) أو عن طريق الأدوات التي تتضمن الاستفهام والتساؤل، ذلك ان له أدوات كثيرة وهو الأنسب للاستهلال في اللغة العربية، وأحد الأساليب التي تستخدم لإيصال المعاني البلاغية إلا انه أكثرها ثراء، وتتعدد الأغراض التي يخرج إليها الاستفهام ، كما تتداخل فيما بينها، ويعود ذلك إلى ما في الاستفهام من قدرة في التعبير عما تجيش به النفس من مشاعر وانفعالات مختلفة تبرز في صورة الاستفهام للتعبير عن تلك المشاعر.

وتدور أكثر هذه المعاني حول الإخبار تارة بمعنى اطلاع السامع، أو تثبيت خبر لديه، أو كليهما، وقد يأتي بمعنى التقرير وهو "حملك المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقر عنده ثبوته أو نفيه"[١:٩٥/٦]، فيكون التقرير بهذا الأسلوب ابلغ لأنه أوقع في النفس وأدل على الإلزام.

وقد يأتي الاستفهام للإنكار أي: الجحود، فالإنكار " لتنبيه السامع، حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتدع ويعيا الجواب، أما لأنه قد ادعى القدرة على فعل لا يقدر عليه،... واما لأنه همّ بأن يفعل ما لا يستصوب فعله، فإذا روجع فيه تنبه وعرف الخطأ، واما لأنه جوّز وجود أمر لا يوجد مثله "[٧/ ١١٩ –١٢٠].

ويعد أسلوب الاستفهام من ابرز الأساليب البلاغية التي استخدمها الشريف الرضي في شعره، وفي اغلبها يخرج الرضي به عن الاستفهام الحقيقي إلى معان مجازية يوظفها توظيفا بلاغيا عاليا يفهمه المتلقي من السياق اللغوي عند تأمل النص وسبر معانيه وأسراره، وتتجلى فيه مقدرته الأدبية والفنية.

وبلاغة الاستفهام في شعر الشريف الرضي لا لما يحمله من معان مجازية وحقول دلالية فحسب، فإنها قد تتناوب فيما بينها وتترابط ذلك "انها معان مولدة دلاليا عن المعنى النواة وتقوم على التراتب والتسلسل

والتدرج والتقاطع، مُكونة في ذلك حقول دلالية متداخلة، وذلك حسب طبيعة المعنى النواة في البنية "[٨/ ٢٨٦]، بل بلاغته من حيث توظيفه لخدمة المعاني الدينية وقدرته على توصيلها.

ويؤلّف المعنى ركناً أساساً ومهماً من أركان الشعر، ولا يكاد يخلو كتاب من كتب النّقد العربيّ القديمة من بحث المعنى لا سيما في كلامهم عن اللفظ والمعنى، حتى كان وقوف القدماء على المعاني أكثر من وقوفهم على الألفاظ بوصفها أساس الكلام.

ويراد بالمعنى ما يقصد بشيء، وهي الصّور الذّهنية " فمن حيث إنّها تُقصد باللفظ، سُمّيت معنى، ومن حيث إنّها تحصل من اللفظ في العقل سُمّيت مفهوماً، ومن حيث إنه مقول في جواب ما هو سُمّيت ماهية، ومن حيث ثبوته في الخارج سُمّيت حقيقة، ومن حيث امتيازه عن الأغيار سُميت هوية "[٢/ ١٨٦].

وقد عني النقاد العرب القدماء بصحّة المعنى، فالمعنى " ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس ... بأن يكون من معاني العامة وإنّما مدار الشرف على الصّواب وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال "[١/٩: ١٣٦].

وقد كان للجانب الديني دور كبير في حياة الشريف الرضي فقد كان عفيفا متدينا حافظا للقرآن مختلفا إلى حلقات تفسيره، وقد وهب الله سبحانه الشريف الرضي سمات شخصية من ذكاء وموهبة شعرية ونسب شريف للبيت العلوي زيادة على عقيدته القوية وإيمانه الراسخ، فكان كل ذلك عونا له في الاستفادة مما ارتكزت عليه ثقافته من أصول متينة.

وشعر الرضي يدل على ثقافة إسلامية عالية ومعرفة واسعة بالقران الكريم ومعاني آياته ، وكان متأثرا بأسلوبه، وفي شعره تقليد واضح لصياغته البلاغية الجميلة واخذ واسع من ألفاظه ومعانيه بل كان الشريف الرضي عالما ضليعا في الدين الإسلامي " فقد كانت له من المفاهيم الإسلامية عدة كبيرة لتقويم شعره بأفكار ثرية بالحكمة والمعرفة والموعظة والسداد "[١٠/٣٧].

ويظهر اثر المعاني الدينية في أخلاق الشريف الرضي وسلوكه الذي لا يشينه ما نسب إليه حاسدوه من مجون،[١١/٢٩] وتتسلل تلك المعاني إلى نفسه الإيمانية فتظهر في دقائق شعره لا سيما في مدحه لنفسه وافتخارة بما حباه الله من صفات.

ويمكننا معرفة بلاغة الاستفهام ودوره في الوصول إلى المتلقي والتأثير فيه من توظيفه لهذا الأسلوب خدمة للمعاني الدينية التي غالبا ما تأتي مقترنة به فكأنه موظف لخدمتها وتوصيلها إلى متلقيه وإقرارها وتثبيتها في نفوسهم في اغلب الإغراض الشعرية التي طرقها الرضي.

إذ يقترن الاستفهام في شعر الشريف الرضي بالمعاني الدينية، فهو المفطور على الفتوة منذ حداثة سنه حتى انه بدأ بمحاسبة نفسه منذ الطفولة ففي قصيدة قالها في مطلع صباه،[١٢ /١٧٨] يتساءل منكرا على نفسه بقوله:[١٣/٢: ٤٥٥]

أأدع الدنيا ولم تدعني يلعب بي عناؤها المعني

فان كان بعض ما نسب إليه سببه ما قد ورد في بعض اشعاره،[١٣ /٢: ٤٣١] فربما كان ذلك استرسال شاعر،[٢/٤٥] أو سببه التزامه التقية التي تشكل جزءا من عقيدته الثابتة وإيمانه الراسخ.

ويمكننا عد هذه التقية أولى المعاني الدينية التي تتضح فيها بلاغة الاستفهام، فعند توجه الناس في شهر ذي القعدة الى بيت الله الحرام نراه يستخدم الاستفهام بقوله [١٣/١: ٤٨٨– ٤٨٩]:

ويا قرب ما أنكرتم العهد بيننا نسيتم وما استودعتم الود ناسيا

أأنكرتم تسليمنا ليلة النقا وموقفنا نرمي الجمار لياليا
عشية جاراني بعينيه شادن حديث النوى حتى رمى بي المراميا

" فالشادن ليس بمحبوب عادي، فعلى الرغم من أنه يحمل الموت إلا أنه موت عذب يهواه الشاعر، ولا يرجو له السوء، بل يدعو بألا يمسه السوء. والشادن ضرب من التورية والتقية التي أكّد عليها أهل البيت السلام، وقد كان الشريف في بداية حياته آخذا بهذا المبدأ إلا أنه دفعه فيما بعد بطلبه، ولعل هذا هو السبب الذي جعله يختلف مع والده مع حبه الشديد له، وذلك حين أعلنها حربًا في وجه الخلفاء"[١٤/ ٨٩]، كما نجد اقتران الاستفهام بالمعاني الدينية واضحا في ورود (العهد) ومدى الالتزام به، و(الجمار) وهي الحصى التي يرمي بها الحجيج في الحج.

ويتضح من امتناعه عن السؤال في القصيدة نفسها التزامه بالتقية وذلك في قوله :

ومن حذر لا أسأل الركب عنكم واغلاق وجدي باقيات كما هيا

" فالحذر من الجهر هو الذي يجعله يتكتم في السؤال عن أحوالهم، لكن ذلك لا يعني أنه تغير أو تحول عن عهده، بل ما زال متعشقا متعطشا له، فوجوده باق لم يتغير، والاعلاق فيها من معنى التعلق والارتباط ما يؤكد الميثاق وقوة حباله "[١٤/ ٨٩].

وقد ظهرت المعاني الدينية في شعر الرضي من استلهامه لتلك المعاني من القران الكريم والسنة النبوية الشريفة وكلام الإمام علي عليه السلام وهو الواضح في أشعاره وما ظهر فيها من قيم دينية وصفات أخلاقية ومعان روحية [١٠/٢٧].

ويكثر الرضي من الاستفهام في إيصال هذه المعاني الدينية في أشعاره إلا ان أكثر ألوان الشعر التي تبرز فيها (مدائحه ومراثيه)، ففيها قيم أخلاقية نزل بها القران الكريم ودعت إليها السنة النبوية الشريفة كالإيثار والوفاء والجود .... وغيرها مما بنى الإسلام أخلاق المسلم عليها من قيم إنسانية نبيلة.

والمديح هو " الثناء على الجميل الاختياري قصدا "[١٧٣/٢]، ويكون ذلك ب " تعداد لجميل المزايا، ووصف للشمائل الكريمة، وإظهار للتقدير العظيم الذي يكنه الشاعر لمن توافرت فيهم تلك المزايا، وعرفوا بمثل هاتيك الشمائل "[١٥/ ٥].

فمن قصيدة له يمدح بها الطائع بالله ويهنئه بعيد الأضحى يفتتحها بتلقيبه بلقب (أمير المؤمنين)، ويثني عليه جزاء نعمه المتكررة وفضله على الشاعر ، يصف الرضي تلك النعم ويوظف الاستفهام بتكرار الأداة نفسها لوصف كثرة تلك النعم بإزاء عجز الشاعر عن ردها بقوله: [١٣/١: ٥٥]

وعلمني كيف الطلوع إلى العلى وكيف نعيم المرء بعد شقاء
وكيف أرد الدهر عن حدثانه وألقى صدور الخيل أي لقاء

هذه النعم التي يكثر الرضي من تكرارها في مدائحه ليعيد الفضل إلى الله تعالى فلا يرجع الفضل لممدوحه فحسب –على عادة المديح التكسبي–، فيكرر لفظ (النعم) ثلاث مرات في بيتين مؤكدا سبوغها، وذلك في قصيدة يمدح بها فخر الملك وكان قد كتبها له وهو بفارس بقوله: [١٣/٢: ٢٥٩]

أحقّ من كانت النعماء سابغة عليه من أسبغ النعمى الأمم
واجر الناس ان تعنو الرقاب له من استرقّ رقاب الناس بالنعم

ويمدح الخليفة الطائع بالله حين أكرمه وقلده النقابة في قصيدة يعظمه بها ويلقبه ب(أمين الله) وان له الأمر في قوله: [١٣/ ٢: ٤٥٠].

لك ذروة البيت المع ظّم والاباطح والحجون
أترى أمين الله إلى لا من له البلد الأمين
والأمر أمرك لا فم يوحي ولا قول يزيد

ويمدح الرضي أباه مهنئا إياه بقدومه من فارس وخلاصه من القلعة في قصيدة يقول في ثناياها منكرا باستفهامه على حاسديه ما فعلوه بوالده بقوله: [١٣/١: ١٣٠]

أما علم الحاسد المستغر ان الزمان عليه رقيب

ويكرر الاستفهام في القصيدة نفسها بعد أبيات مستنهضا والده المستحق للمجد المسدد بنصر الله سبحانه منكرا على حاسديه كيدهم له بقوله:

أترضى لمجدك ان لا يكون لنا من عطايا المعالي نصيب
فلا يقعدنك كيد الحسو د، وانهض فكل مرام قريب

ويلح في الاستفهام والتساؤل في قصائده التي يمدح بها أباه كقوله:[١٣/٢: ٤٢٦]

أأغضي على ضيم، وعزك ناصري وباعي طويل من وراء سناني
إذا فعداني الضيم في كل ليلة وكبت بأعجاز البيوت جفاني

ويفخر بنفسه وجده بوصفه حفيد النبي محمد والأئمة عليهم السلام الذين ضحوا بأنفسهم لنصرة الإسلام والمسلمين مستخدما أسلوب الاستفهام إذ يقول:[١٣ /١: ٣١٣]

فمن ذا أسامي، وجدّي النّب ي أم من أطاول أم من ألاحي
أنا ابن الأئمة والنّازلي ن كل منيع الرّبى والبراح

لقد كان الرضي شاعرا ملتزما وشعره مرآة لنفسه الصادقة الخالصة في حب ال البيت عليهم السلام.

وتبدو بلاغة الاستفهام بارزة في تثبيت المعاني الدينية في مدائح الشريف الرضي في مقدمات قصائده فضلا عن مضامين تلك القصائد، فالافتتاح أو المقدمة في جوهرها صيغة تراثية تمتلك فيضاً من الإيحائية المفتوحة لهموم الشاعر الخاصة، ذلك إنَّ لمقدمة القصيدة أهمية بالغة لا تقتصر على كونها مفتاح النص بل إنَّ وجودها يؤثر في قطبي العملية الإبداعية، منتج النص أي الشاعر، ومتلقيه.

والافتتاح ينوه بجودة القصيدة أو العكس فقد كان يُقال: " أحسنوا معاشر الكتّاب الأبتداءات فأنهنّ دلائل البيان "[٤٣١/١٦]، وكان القدماء يعدّون مطلع القصيدة دليلا على جودتها، ذلك ان مطلع القصيدة مفتاحها، "فالشعر قفل أوله مفتاحه وينبغي للشاعر ان يجوّد ابتداء شعره فانه أول ما يقرع الأسماع "[١٧/١: ٢١٨].

وتسود المعاني الدينية مدائح الشريف الرضي ومراثيه وفيها تتضح بلاغة الاستفهام ولا سيما في مقدمات قصائده، التي تنوعت بين مقدمة طللية وأخرى حماسية وأخرى ذاتية.

اذ يفتتح الرضي اغلب مدائحه بمقدمات طللية، وترتكز المقدمة الطللية على الاسترجاع أي العودة بالذاكرة إلى الوراء واسترجاع الأيام الماضية، وعهد الصبا والشباب، وقد نعجب لاتخاذ الرضي وسواه من الشعراء المتحضرين " لعناصر الأطلال ورحلة الصحراء البدوية، غير انهم اتخذوها رمزا، أما الأطلال فلحبهم الداثر، وأما رحلة الصحراء فلرحلة الإنسان في الحياة "[١٨/ ١٦٣]، وما كان يصحب الأطلال من حنين وذكريات.

وينتقي الشريف الرضي لأطلاله والبكاء على آثارها الباقية أسلوب الاستفهام، ويعد الرضي وقوفه على الأطلال ومساءلته إياها ومخاطبة الخليل من قبيل اشتياقه للماضي وحنينه لذكريات ما فات من الزمان،

ذلك إن الإشراف على الأطلال واستنطاقها حالة إنسانية، فالطلل حالة وليس مجرد رماد أو بقايا آثار، فكان وقوفه وقوفا على أطلال العمر الراحل والحسرة على فرقة الشباب .

وفي وقوف الشاعر في مقدماته على الطلل تعبير عن رؤيته للزمان وموقفه منه، فهو في حالة تصالح مع الماضي ورفض للحاضر، إذ يعد الماضي حالة مثالية ويجب أن تذكر حتى تعود الحياة إلى الأطلال البالية فيسقط الشاعر أحاسيسه وانفعالاته النفسية على المكان، لذا نلحظ أن تأثير مسألة الشيب على نفسية الشاعر ومن ثم انعكاسها على مقدمة قصائده بارزة جداً " ويرى دنياه كلها تذهب بذهاب الشباب "[١٢/ ٣٤٧]، إذ يقول: [١٣/١: ٥٤٧]

من شافعي وذنوبي عندها الكبر ان المشيب لذنب ليس سيغتفر

ليتبع ذلك ببيتين بالقول:

وأي ذنب للون راق منظره إذا أراك خلاف الصبغة الأثر

ويستفتح الشريف الرضي عددا من قصائده بأداة استفهامية يتساءل فيها عن أمسه الضائع تمهيدا لغرضه المطلوب في النص، إذ يقول في مفتتح مدحه للموفق بالله وزير بهاء الدولة وتهنئته بعد فتحه لفارس:[١٣/٢: ٤١٩- ٣٢٠]

ضلالا لسائل هذي المغاني وغيا لطالب تلك الغواني

وما اربي بسؤا ل إلا تذكر ماضي زماني

خليلي ان جزتما ضارجا فكرا المطي ، وردا المثاني

ان الشريف الرضي في النص السابق يتميز بشاعرية فذة تنبثق من صدق المعاناة، وحقيقة التجربة، ومن جمالية التنسيق بين عناصر الطلل وعلاقاته بأجزاء النص الآخر، والاسترسال في وصف التفاصيل الأخرى عن طبع لا تكلف فيه، ويتضح ذلك بشكل أكثر دقة عند متابعة الأجزاء الداخلة في بناء القصيدة.

ويكرر توظيف الاستفهام في قصيدته ثلاث مرات ليكمل حديث الذكريات وثنائية الصبا والمشيب، إذ يمثل الشيب عند كثير من الناس المرحلة الأخيرة من مراحل العمر وقد تطول هذه المرحلة وقد تقصر، لذا فان اغلب الناس يتطيرون من ظهور الشيب في شعرهم لا سيما ان الشيب قد نزل " ضيفا ثقيلا برأس الشريف وهو في الثالثة والعشرين والشيب في مثل تلك السن لا يخيف "[١٢/٢٤٣]، ومنها قوله بعد أبيات:

افالان لما أضاء المشيب وأمسى الصبا ثانيا من عناني

ويكرر الاستفهام في مطلع إحدى قصائده التي يذكر فيها مودة له مع الوزير أبي علي الحسن بن حمد بن أبي الزمان وهما في طريقهما إلى مكة وزيارة قبر الرسول المصطفى صلى الله عليه واله وسلّم فيتساءل في البيت الأول ثم يستفهم بأحد أدواته في البيت الثاني بقوله: [١٣/١ :١٢٤]

ترى نوب الأيام ترجي صعابها وتسال عن ذي لمّة ما أشابها

وهل سبب للشيب من بعد هذه فدأبك يألون الشباب ودأبها

ويمتزج حديث الشيب بالحكم التي شاعت في شعره بفعل إيمانه بالله وبما يأتي به الدهر وتحيكه الأقدار، فيتساءل مقررا تلك المعاني متعجبا من إصابة سهام الدهر فهي لا تخطئ من تصيبه قائلا:

وقالوا : سهام الدهر خاط وصائب فكيف لقينا، يا لقوم، صيابها

ويكرر الرضي مستفهما في ثنايا قصيدته ومنوعا فيما يستعمله من أدوات للتأثير في متلقيه فيقول في القصيدة نفسها:

نقوم أيدي اليعملات وراءه ونعدل منها أين اومى رقابها

ولم يكن هذا التوظيف في مدحه للخلفاء والوزراء فحسب، إذ يقول في مفتتح قصيدة يمدح فيها أباه ويعرض بذم بعض أعدائه:[١٣ /٢: ٤٢٣]

زمان الهوى ما أنت لي بزمان ولا لك من قلبي اعز مكاني

أبعد القباب اللاّء زلن عن الحمى أراعي الهوى في أربع ومغان

ويكرر الاستفهام بعد ابيات بقوله:

أترضى عن الدنيا ومولاك ساخط وتمضي طليق وابن عمك عاني

ويعود متسائلا بقوله:

وكم غادر البين المفرق من فتى يمسح قلبا دائم الخفقان

ويكرره بعد أبيات بقوله:

أأغضي على ضيم، وعزك ناصري وباعي طويل من وراء سناني

وعلى الرغم من وحدة الإطار الطللي الذي يحيط بالمقدمة وتكرر بعض العناصر عند الشعراء جميعا في أكثر هذه المقدمات إلا انها تختلف من شاعر إلى آخر، فلكلّ مقدمة مشخصاتها ورسومها، وكلّ شاعر يضفي على المضمون من إبداعه، بل إنّ المقدمة الواحدة قد تتباين صورتها عند الشاعر الواحد .

ويستعمل الشريف الرضي أسلوب الاستفهام في بعض مطالع قصائده المدحية، إذ يستفتح عددا من قصائده بأداةٍ استفهامية،[١٣ /٢: ٢٣٨] سواء طالت تلك المقدمة أم قصرت، وفي البيت الأول أو الثاني، وأيا كان نوع تلكً المقدمة طللية أم حماسية أم ذاتية.

فقد يكون الاستفهام مفتتحا طويلا عن الطلل ورحلة الظعن كقصيدته التي يمدح بها الملك بهاء الدولة، فيلجا الرضي إلى استعمال أسلوب الاستفهام وتكراره ويفتتحها بذكر الديار، فيدخل المكان ركناً أساسياً في بناء قصيدة الشريف الرضي وصورة الطلل المنبعثة من أعماق الشاعر لتعبر عن معاناة حقيقية وخلجات صادقة وشجن عميق، إذ يقول فيها: [١٣/٢: ٢٩٢]

أترى ديار الحي بالـ جزعين باقية الخيام

أم فرقتهم خلفة الـ أيام، أو نجع الغمام

ماذا على الركبان لو حيوا طلولك بالسلام

وفي هذه الأبيات يستفهم الشاعر بالهمزة أداة الاستفهام الأصلية عن المكان وهو (ديار الحي) وأهله، وهل ما زالوا في المكان أم إنهم فرقتهم الأيام وعبث بهم الزمان، ويخاطب ربعه بحوار صادق وبحسرة الذات على الأيام الماضية.

وتقوم المقدمة الطللية على فن الوصف، فصورة الطلل نتيجة للوصف المكاني الممزوج بمناجاة الشاعر النفسية، وحواره مع تلك الديار المقفرة التي قاومت فعل الزمن وتغيرت ملامحها وأبعادها بتأثير الريح والأمطار وتقلبات الجو، ولم يبق منها إلا معالم متناثرة هنا وهناك غير إن الشاعر استطاع أن يتعرف عليها فقلبه دليله القائد إليها على الرغم مما أصابها من تغيير.

وكأن الشاعر الرضي يصطنع رحلة تطوف في ماضي الذكريات في تلك الصحراء ويشعرك بأن الطلل مكان الألفة المحبب، إذ يقول في مقدمة قصيدة يمدح فيها أباه:[١٣/ ٢: ٤٥]

يا دار ما طربت إليك النوق إلاّ وربعك شائق ومشوق

جاءتك تمرح في الأزمة والبرى والزجر ورد والسياط عليق
وتحن ما جدّ المسير كأنّما كلّ البلاد محجر وعقيق

فمثل هذه المقدمة تخلق الجو الشعري الذي يمنح الشاعر القدرة على القول لما يستشعر من معاناة نفسية تمكنه من التنفيس عن كل ما يداخله وما يدور في ذهنه من أفكار.

إن الشريف الرضي ينتقي أطلاله ويبكي آثارها الباقية، فهو يميل إلى استعادة ماضي المكان الحجازي والحنين إليه والبكاء على أيامه، وتذكر أهله، وقد شكلت هذه العناصر جميعها بنية طللية مميزة، وصورة متكاملة، نابعة من واقع جميل عاش في مخيلة الشاعر.

ولصيغ الاستفهام أثر مميز في بناء الافتتاح الطللي فالشاعر في وقفته الجليلة أمام الأطلال يستفهم عن حالها ويسأل عن أهلها، ويمهّد للحديث عن ماضيها المشرق وما آلت إليه، فالاستفهام من الوسائل الأسلوبية المعتمدة في الأدب عامة والشعر بخاصة، ويمدح شاعرنا في قصيدة يفتتحها بالاستفهام ويكرره فيقول:[٢/١٣: ٤٢٧]

أمن شوق تعانقني الأماني وعن ود يخادعني زماني
وما أهوى مصافحة الغواني إذا اشتغلت بناني بالعنان
وأسفع لشمّته الشمس ندب أبينا ان يلقّب بالهجان
وكم متضرّم الوجنات حسنا إذا جربته نابي الجنان

يتميز الشريف الرضي في النص السابق بشاعرية فذة تنبثق من صدق المعاناة، وحقيقة التجربة، وبجمالية التنسيق بين عناصر الطلل وعلاقاته بأجزاء النص الآخر.

وقد يبدأ الشريف الرضي قصيدته بمقدّمة ذاتية يصف فيها هموم نفسه ونوازعها وحزنها ويبثّ فيها شكواه وألمه وخيبة رجائه، وقد تتضمن العتاب فالشاعر يعمم همومه ويوجه خطابه الشعري فيها للّيالي والايّام مخاطبا الزمان كما في قصيدته التي يمدح فيها سابور بن ازدشير بقوله:[١/١٣: ٣٥٠]

أعاتب أيامي وما الذنب واحد وهنّ الليالي الباديات العوائد
وأهون شيء في الزمان خطوبه إذا لم يعاونا العدو المعاند

وقد يبدأ مدحته بمقدمة حماسية تحمل دلالة الفخر الذّاتي وتأجيج روح الحماسة والقوة، وإن كانت هذه الصفة هي الغالبة في شعر الشريف الرضي، والمكان الذي يناسب طموح الفارس هو مكان الحرب، فالشاعر دقيق في اختيار ما يناسبه ويزيد في تأجيج روح الحماسة فيقول:[١/١٣: ١٣٨]

مثواي اما صهوة أو غارب ومناي اما زلف أو قاضب
في كل يوم تنتضيني عزمة وتمد أعناق الرجاء مآرب

فالذات تختار منزلها ومقامها والمكان الذي تراه مناسبا لها، والمنزلة المعنوية التي تناسب طموحها، ونلمس دقة اختيار مكاني وانتقاء في الألفاظ وهناك علاقة وطيدة بين المكان والحيوان فالذات تختار صهوة الفرس، أو كاهل الناقة بما يناسب الحماسة والفخر. والحماسة في شعر الشريف الرضي حاجة متأصلة لا طارئة فهي سمة من سماته الإنسانية الخاصة لذا كان ظهورها في شعره عفويا وتلقائيا وبعيدا عن التكلف والصنعة وهو " يجمع بين الحماسة بمعناها الأخلاقي والغزل بمعناه الوجداني الفردي الرقيق "[١٩ /٢٢٠].

وقد يأتي الاستفهام في مطلع القصيدة لا في بيتها الأول بل في البيت الثاني كما في قصيدته التي يمدح بها أبا سعيد بن خلف ويهنئه بمهرجان بقوله في المطلع: [١٣/ ١: ١٦٠]

الآن جوانبي غمز الخطوب وأعجلني الزمان إلى المشيب
وكم يبقى على عجم الليالي وقرع الدهر جائرة الكعوب

ويكرر الاستفهام في ثنايا قصيدته بقوله:

أليس الدهر يجمعنا جميعا على مرعى من الحدثان موبي

والقصيدة المدحية عند الشريف الرضي، متعددة الأغراض، إذ نرى فيها الوصف، والفخر، والحكمة والهجاء والنسيب زيادة على المديح. ويفتتح إحدى قصائده فيها بقوله: [١٣/١: ١٨٦]

اغدرا يا زمان ويا شباب أصاب بذا، لقد عظم المصاب

ويكرر الاستفهام بعد أبيات بقوله:

وما ذنبي إذا اتفقت خطوب مغالبة وأيام غضاب

وقد يكرر همزة الاستفهام في أبيات متتالية بقوله:[١٣/١: ١٩١]

أطال واعرض ما بيننا مبير الحياء مثير الريب
أفي كل يوم لرق الهوان صبية أنفسكم تتسكب

وفي قصيدة أخرى يذكر الرضي الديار في ثنايا قصيدته مستفهما عنها بقوله:[١٣ /٢: ١١-١٢]

هل دارنا بالرمل غير نزيعة أم حيّنا بالجزع غير خلوف

ويكرر الاستفهام بعد أبيات من القصيدة نفسها بقوله:

كم بين أثناء الضلوع لهنّ من قرف بأظفار النى مقروف

ثم يتساءل منكرا على من يتعرض بلسانه لإمامه أمير المؤمنين عليه السلام بقوله:

اعلي يستل الدنيّ لسانه سيذوق موبى مربعي ومصيفي
فيمن تعيرني، بفيك رغامها ابتالدي في المجد أم بطريفي
ابمعشري وهم الأولى عاداتهم في الروع ضرب طلى وخرق صفوف

وترد بعض قصائد الرضي أجوبة يرد بها على أبيات قالها آخرون إلاّ انه يفتتحها بالاستفهام لتقرير المعاني في نفوس متلقيه كما في قوله:[١٣/٢: ٢٤]

كم ذميم إليكم ووجيف وصدود عنا لكم وصدوف

ويكرر الاستفهام منكرا الرجاء في غير موضعه ليزيد الاستفهام بلاغة باقترانه بصورة استعارية يصبح فيها الشوق محرّكا فاعلا ومؤثّرا كالإنسان بقوله:

كيف يرجو الكثير من راضه الشو ق إلى ان رضي ببذل الطفيف

وغالبا ما يقرن أسلوب الاستفهام بأساليب بلاغية أخرى إيصالا لمدائحه وإمعانا في التأثير، إذ يفتتح إحدى ممادحه لبهاء الدولة وينفذها إليه وهو في البصرة بقوله:[١٣/٢: ٨٦-٨٨]

يا أراك الحمى تراني أراكا أي قلب جنى عليه جناكا ؟
اعطش الله كل فرع بنعما ن من الماطر الروي وسقاكا
أي نور لناظري، إذا ما مرّ يوم، وناظري لا يراكا

فيقترن الاستفهام بالصورة الاستعارية المقترنة بالنداء تارة وبالدعاء تارة وبالتكرار تارة أخرى مع تكرار أداة الاستفهام نفسها (أي)، ليتحول عنها بعد أبيات إلى أداة أخرى مع امتداد التكرار بقوله:

هل أولاك الذين عهدي بهم في ك على عهدهم وأين اولاكا

ويكرر الاستفهام في شطري البيت ويجمع استفهامه مع تكرار الاداة نفسها في شطر واحد بقوله:

كم ، إلى كم تبغي الصعود وقد جز ت المعالي وقد طلعت السكاكا

ثم يكرر الاستفهام بعد ابيات بقوله:

هل يروم القروم عندك والأس د كليب عوى لها في حماكا

ثم يقول:

كيف تقذى عين ويألم وطرف نظر اليوم وجهك الضحاكا

وفي مضامين قصائد الرضي المدحية نجد المعاني الدينية كثيرة واضحة في ألفاظه ومعانيه، إذ يكرر الاستفهام في تضاعيف القصيدة فيقول:

ومن يسال الركبان عن كل غائب فلا بد ان يلقى بشيرا وناعيا

وغالبا ما يكرر الرضي توظيفه الاستفهام في تبليغ معاني أشعاره في ثنايا قصائده التي يفتتحها بالاستفهام،[١٣/ ٢: ١٠٠وما بعدها] لا سيما مدائحه التي يوجهها في مناسبات دينية، فمن قصيدة يمدح بها الطائع لله في شهر رمضان مهنئا له في هذا الشهر الفضيل يفتتحها بقوله:[٢/١٣: ١٠٥]

أمبلغي ما اطلب الغزل ؟ أم لا فتنجدني القنا الذبل

والسيف أولى ان أعوذ به مما تجر الأعين النجل

ويكرر الاستفهام بعد أبيات بالأداة نفسها التي يفتتح بها متسائلا:

أمريد زائدة الأنام أقم هيهات منك الشد والعجل

أتريد غايات الفخار، وما لك ناقة فيه، ولا جمل

فيكرر الهمزة مرة للنداء وأخرى للاستفهام الإنكاري مضمّنا شعره مثلا كان شائعا. ويوظف الاستفهام في مقدمات مدائحه التي يرتجلها كما يوظفه في قصائده التي يكتبها، ففي قصيدة كتبها إلى الملك قوام الدين يمدحه فيها ويهنئه بعيد النوروز بقوله:[١٣ /٢: ١١٩]

أين الغزال الماطل، بعدك، يا منازل

قد بان حالي سربه، فلم أقام العاطل ؟

من لقتيل الحب لو رد عليه القاتل

ويستفتح قصيدته التي يمدح فيها الملك قوام الدين باستعمال أسلوب الاستفهام معبرا بإخلاص، ذلك "ان مدح الشريف لم يكن للتكسب، وإن لم يخل أحيانا من غرض نفعي "[٤١/٢٠]، فيقول [٢/١٣: ١٢٨]

أبعد الأسى عاد عيد الغرا م وقزف من الشوق بعد اندمال

ثم يكرر الأسلوب نفسه بعد أبيات عدة بقوله:

الم ينهكم رش شؤبوبه بوابل ذي برد وانسجال

ويفتتح قصيدته التي يمدح فيها أباه ويهنئه بعيد الأضحى فيقول:[١٣ /٢: ١٣٣ –١٣٥]

أأرجو ذباب السيف ثم أخافه وأرضى بسخط المجد قول عذول

ويكرر الاستفهام بالهمزة بعد أبيات قائلا:

أطال عنان الأمن حتى أظله بأغبر طام من قنا وخيول

وكم رحم اطّت به وهو مغضب فعاد إلى الإحسان غير مطول

ليعود إلى الاستفهام بعد أبيات بقوله:

وكم خاض تأمور الظلام بفتية يرون وعور الليل مثل سهول

ويمدح أباه ويهنئه بعيد الأضحى فيفتتح قصيدته متسائلا في البيت الثاني ومكررا الاستفهام وبأداة الاستفهام نفسها:[٢/١٣: ١٤٣ –١٤٥]

إلى الله اني للعظيم حمول كثير بنفسي والعديل قليل

ومن طعمه من سيفه كيف يتقي ومن يطلب العلياء كيف يقيل

ويتساءل بعد أبيات عدة قائلا:

يرجى مده بعدما ضحكت به امام المعالي غرة وحجول؟

ليعاود ذلك في القصيدة نفسها بقوله:

ألآن ان ألقيت ثني زمامها وعطل أغراض لها وجديل

ويكرر الرضي الاستفهام مع تكرار الأداة نفسها في البيت نفسه بعد افتتاحه قصيدته في المديح كقوله:[٢/١٣: ١٤٠]

إلى الله اني للعظيم حمول كثير بنفسي، والعديل قليل

ومن طعمه من سيفه كيف يتقي ومن يطلب العلياء كيف يقيل

ويفتتح بالاستفهام قصيدته لأحد أصدقائه بقوله:[٢/١٣: ١٤٧]

أأبقى كذا أبدا مستقلا يقلبني الدهر عزا وذلا ؟

واقنع بالدون فعل الذلي ل ، يخشى الأجل ويرضى الأقلا

ويفتخر ويذم الزمان مفتخرا بآبائه الطاهرين في قصيدة أخرى قائلا:[٢/١٣: ١٤٩– ١٥٠]

أتذكراني طلب الطوائل أيقظتما مني غير غافل

قوما، فقد مللت من إقامتي والبيد أولى بي من المعاقل

ويعود للاستفهام مكررا متواصلا في ذلك في استفهامات متلاحقة بأبيات متتالية في القصيدة نفسها :

مالك ترضى ان يقال شاعر؟ بعدا لها من عدد الفضائل

كفاك ما أورق من أغصانه وطال من أعلامه الاطاول

فكم تكون ناظما وقائلا وأنت غب القول غير فاعل

كم يقتضيني السيف عزمي ويدي تدفعه دفع الغريم الماطل

أأرهب القتل حذار ميتة لا بد ألقاها بغير قاتل

ويكثر الشريف الرضي من التنقل بين الأساليب بقصد أو من غير قصد معبرا عن مشاعره وانفعالاته وذلك في قصيدة أخرى:[٢/١٣: ١٩٩]

وقائلٍ لي: هذا الطود مرتحلٌ وهل يخفُّ على الأيام محمله

لا يبعد الله من غالت ركائبه صبري، وقلقل من دمعي تقلقله

يطيب النفس إن النفس تتبعه وكيف يرحل من في القلب منزله

فالشاعر يبدأ بالإخبار ثم يأتي بالاستفهام ثم ينتقل إلى الدعاء ثم يعود إلى الاستفهام وهذا التحول من أسلوب إلى آخر يدل على قدرة الرضي وتمكنه من لغته، وقد يعكس هذا التنقل وعدم الاستقرار الحيرة والاضطراب النفسي الذي يعاني منه الشاعر حين نظم تلك الأشعار حتى وان كان في شعره مادحا.

ومن قصيدة له في الفخر وهو مديح للنفس إذ " يتغنى الشاعر فيه بنفسه وبقومه "[٢١ / ٦]، يفتتحها الرضي متسائلا : [١٣/١٥٢:٢ – ١٥٣]

لمن دمن بذي سلم وضال بلين ، وكيف بالدمن البوالي ؟
وقفت بهّن لا أصغي لداع ولا أرجو جوابا عن سؤالي
أيا دار الألى درجت عليها حوايا المزن والحجج الخوالي
فأيّ حيّا بأرضك للغوادي وأيّ بلى بربعك لليالي

فشاعرنا يتساءل عن تلك الدمن والمواضع في (ذي سلم، وضال) ماذا حلَّ بهن وهو يعلم بأن لا جدوى من تساؤلاته ويعود بعد ثلاثة أبيات من القصيدة نفسها إلى الاستفهام بقوله:

فهل لي والمطامع مرديات دنو من لمى اك الغزال
لقد سلبت ظباء الدار لبّي ألا ما للظباء بها وما لي

وبعد ثلاثة أبيات من القصيدة نفسها يتساءل:

وكيف أفيق لا جسدي بناء عن البلوى، ولا قلبي بسالي

ويتساءل في القصيدة نفسها في استفهامات متتالية وبالأداة نفسها إذ يقول:

أروني من يقوم لكم مقامي أروني من يقول لكم مقالي
ومن يحمي الحريم من الأعادي ومن يشفي من الداء العضال

ويفتتح قصيدة يخصها للملك قوام الدين بقول: [١٣/ ٢: ٢٣٨-٢٤٠]

زار والركب حرام أ وداع أم سلام

ويعاود الاستفهام بعد أبيات ليقول:

ومنى أين منى م نّي ، لقد شط المرام
هل على جمع نزول وعلى الخيف خيام

ثم يعود مستفهما بعد أبيات عدة من القصيدة نفسها قائلا:

أترى لم يكفه ما لقي الخيل الطّغام

ويذم الزمان مفتتحا قصيدته بالاستفهام قائلا : [١٣/ ٢: ٢٦٤-٢٦٧]

يا قلب ما أطول ها الغرام يوم نوى الحي، ويوم المقام
في القرب ليان ديون الهوى وفي نوى الدار رجيع السقام

ويعود مستفهما عن الزمان بعد بيتين بقوله:

متى نفيق اليوم من لوعة وأنت نشوان بغير المداد؟

ثم يقول:

أمنزل عند عقيق الحمى ومضجع عندي بأعلى الشام

ويمزج بين التكرار والاستفهام في القصيدة نفسها قائلا:

من لهم مثلي، إذا استزلقت أقدامهم يوم ذليل المقام
من لهم مثلي، إذا أصبحوا بعارض يهضب بيضا ولام

وقد يكون في صياغة الاستفهام وتكراره للتعبير عن المعاني الدينية راحة للنفس " لذلك قد تسال عن شيء معروف جوابه ولكن فيه ما يروح عن النفس وما تقمصها أو تسلط عليها من انفعال "[٢٢ / ٦٨] ومن قصيدة يمدح فيها الخليفة الطائع بالله مستفهما بقوله: [١٣/ ٢:٢٧٠]

إلى كم خضوع لريب الزمان قعودا ، ألا طال ها مقاما

ويعود في القصيدة نفسها إلى مدح بني هاشم بقوله:

ألسنا بني البيض من بني هاشم اعزّ جنابا وأوفى ذماما

ويفتتح الرضي إحدى قصائده مفتخرا بسيره على نهج الإمام علي عليه السلام الذي طلق الدنيا ويذم الزمان ومنابع الفخر والمديح واحدة بقوله: [٢/١٣: ٤٥٥]

ستعلمون ما يكون مني ان مد من ضبعي طول سني
أأدع الدنيا ، ولم تدعني يلعب بي عناؤها المعني

وفي كل شعره ومديحه لم يقل الرضي متكسبا بشعره في عصر " غالى فيه الشعراء كثيرا في معاني المدح وزيّفوا عواطفهم فخرج شعرهم عن الحقيقة وجاءت المدائح ذات نغمة واحدة تقريبا "[٤٥/٢٢]، ففي العصر العباسي بلغ الشعر فيه ذروته وكان مسرحا لتأثيرات عدة شكلت حياة المجتمع الإسلامي.[٢١ / ٣٣]

ومن المعاني الدينية التي ترد في شعر الرضي وصفه لزيارته ديار المصطفى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحج البيت الحرام ووصفه لمشاق رحلته وعودته منها ، إذ يتكرر الاستفهام مقترنا بالمعاني الدينية في حجازيات الشريف الرضي التي تعد ذا أهمية بالغة ، فالحجازيات قصائد تفتحت فيها عبقريته في طريق الحج ومواسمه،[٢٣ /٥٥] كقوله :[٢/١٣ :٤٨٢]

فأقسم بالوقوف على الآل ومن شهد الجمار، ومن رماها
وأركان العتيق وبانييها وزمزم والمقام ومن سقاها
لانت النفس خالصة، فان لم تكونيها، فأنت إذا مناها
نظرت ببطن مكة ام خشف تبغّم، وهي ناشدة طلاها
وأعجبني ملامح منك فيها فقلت أخا القرينة أم تراها

وترد هذه المعاني الدينية مقترنة بأسلوب الاستفهام كثيرا في حجازياته لما للمكان الحجازي من قدسيّة متأتية من وصفه المكان الذي ضم رفات الرسول الكريم محمد (ص) وآله الطيبين وصحبه، ونجد ذلك واضحا بذكره للاماكن الحجازية والجمع بينها في كثير من افتتاحيات القصائد في قوله: [٢/١٣: ٢٣٨]

زار والرّكب حرام أوداع أم سلام
طارقاً، والبدر لا يحـ ـفزه إلاّ الظّلام
بينَ جمعٍ والمصلىّ، ريم سرب لا يرام
وحلول ما قرى نا زلهم إلا الغرام

وقد يأتي بأسلوب الاستفهام بعد النفي في تضاعيف القصيدة ، كقوله في إحدى حجازياته: [٢/١٣: ٢٣١-٢٣١]

لم اقض منك لبانات ظفرت بها فهل لي اليوم إلا زفرة الندم

فيأتي بالاستفهام بعد أسلوب النفي الذي يتحسر فيه الشاعر على ما فاته ويتبعه بأسلوب القصر للدلالة على استنكار الشاعر وحسرته .

ويختتم الرضي بعض قصائده بالسؤال والجواب في الوقت نفسه دالا على مجازية أسلوبه فالاستفهام الذي يصوغ به الرضي كلماته مجازي غير محتاج إلى رد أو جواب فيقول [٢/١٣ :٢٧٠]

أأرجو للحواضن كابن ليلى احلت، إذا، على بطن عقيم

ويختتم قصيدة اخرى بالاستفهام مقترنا بتعبيره عن معاني الزهد المستمد اغلبه من الدين ونصائحه وأحكامه بقوله :[١٣/ ١: ٢٩٥]

ما لي إلى الدنيا الغرورة حاجة فليخز ساحر كيدها النفاث
طلقتها ألفا لا حسم داءها وطلاق من عزم الطلاق ثلاثا
سكناتها محذورة وعهودها منقوضة وحبالها أنكاث
أم المصائب لا يزال يروعنا منها ذكور نوائب وإناث
إني لأعجب من رجال امسكوا بحبائل الدنيا وهنّ رثاث
كنزوا الكنوز، واغفلوا شهواتهم فالأرض تشبع والبطون غراث
أتراهم لم يعلموا ان التقى ازوادنا ، وديارنا الأجداث؟

ويختتم إحدى حجازياته بالاستفهام بقوله:[٢/١٣: ٤٨٥]

أين الوجوه أحبها وأود لو أني فداها
أمسي لها متفقّدا في العائدين، ولا أراها
واهنا، ولولا ان يلو م اللائمون، لقلت: اها

ويختتم أبياته في الجود باستفهام إنكاري يثبت فيه صحة تلك الخلال موضحا حقيقتها بقوله:

ولولا الندى ما طأطأ العدم هامتي ولا كان ينضيني من الهمّ ما ينضي
وكيف وفور العرض والمال وافر ومن يخزن الأموال ينفق من العرض
ومن عدم اقري النوازل عذرة ولو حل لحمي قريتهم بعضي

ولا يقتصر استخدامه أسلوب الاستفهام على المديح فتتضح بلاغته في إيصال المعاني الدينية فحسب بل يمتد ذلك إلى مراثيه، إذ يستفتح الشريف الرضي عددا من قصائده بأداة استفهامية، [١٣/ ٢: ٢٣٨] يتساءل فيها عن أمسه الضائع ويكون الاستفهام وسيلته للشكوى من حاضر مرفوض أو للتعبير عن همومه، تمهيدا لغرضه ومعناه المطلوب في النص، ففي إحدى قصائده التي ينظمها في وداع صديق له يفتتحها بقوله:[٢/١٣: ١٩٩]

وقائل لي: هذا الطود مرتحل، وهل يخف على الأيام محمله ؟
لا يبعد الله من غالت ركائبه صبري، وقلقل من دمعي تقلقله
يطيب النفس ان النفس تتبعه، وكيف يرحل من في القلب منزله

فيصف في تساؤله الإنكاري الآم الفراق وعظم منزلة صديقه في قلبه ، ويسأله بعض الناس ان يقوم برثاء حميم له فينظم مفتتح قصيدته متسائلا عن حال هذا الغائب بعد نزوله الغبراء بقوله: [١٣/ ٢ : ٤٥١]

ألا مخبر، فيما يقول، جلية يزيل بها الشك المريب يقين
أسائله عن غائب كيف حاله ومن نزل الغبراء كيف يكون

ونجد مثل هذا المفتتح في ممادحه، إذ يبدأ قصيدة مدحية بقوله: [١٣/١: ٨٦]

يا أراك الحمى تراني أراكا أي قلب جنى عليه جناكا ؟

وتعد مواعظ الرضي خير شاهد على كثرة المعاني الدينية في شعره ولا سيّما الرثاء فيه، وفي وعظه للناس يتذكر القيم الإنسانية المجيدة ويذكر بها، [١٠/ ٣٨] فيرد أسلوب الاستفهام في تلك المواعظ كقصيدته التي يرثي بها ابنة صديق له يفتتحها بقوله: [١٣/٢: ٣٣٠]

عجزنا عن مراغمة الحمام وداء الموت مغرى بالأنام
وما جزع الجزور وان تناهى بمنتصف من الداء العقام
وأين نحور عن طرق المنايا وفي ايدي الردى طرف الزمام
هي الأيام تأكل كل حي وتعصف بالكرام وباللئام
وكل مفارق للعيش يلقى كما لقي الرضيع من الفطام

ذلك ان الشريف الرضي لم يستمد مواعظه من تجارب الحياة وخبرته فيها فحسب، بل هو " عالم ضليع في الديانة الإسلامية والروحانيات، جمع العلم الوهبي بالعلم الكسبي ، فقد كانت له من المفاهيم الإسلامية عدة كبيرة لتقويم شعره بأفكار ثرية بالحكمة والمعرفة والموعظة والسداد ". [١٠/ ٣٧]

ويبرز الاستفهام في مقدمات قصائد الشريف الرضي الرثائية التي يمكن عدها مدحا لغائب وتعدادا لمناقبه ، إذ يفتتح قصيدته التي يرثي بها ابن الطائع بالله معزيا بقوله: [١٣/ ٦٨-٦٩]

أي العيون تجانب الأقذاء أم أي قلب يقطع البرحاء
والموت يقنص جمع كل قبيلة قنص المريع جاذرا وظباء

ويكرر الاستفهام في ثنايا هذه القصيدة بقوله:

أين المقاول، والغطارفة الأولى هجروا الديار، وعطلوا الافناء

ويكرر الاستفهام في القصيدة نفسها بقوله:

ماذا نؤمل في اليراع إذا نشت ريح تدق الصعدة الصماء

ويستخدم الرضي أسلوب الاستفهام في بلورة بعض المعاني الدينية في الرثاء وما لذلك من صلة به كالموت فقد " أغنت الثقافة الإسلامية تصورات الشعراء ، وخاصة في مجال الأفكار الأساسية التي شرحت البعث والحساب، والبدء والمعاد ... وأصبحت الآيات القرآنية ملهما أساسيا في التأكيد على الدلالات الروحية والأخلاقية في البعث والنشور ..."[١٠ /٣٥ – ٣٦]، لذا نرى شاعرنا يسمو بذكر الموت ويأخذ الموعظة من ذلك، كقوله في رثاء بنت صديق له بأسلوب استفهامي: [١٣/ ٢ :٣٣٠-٣٣١]

وأين نحور عن طرق المنايا وفي أيدي الردى طرف الزمام
هي الأيام تأكل كل حي وتعصف بالكرام وباللئام
وكل مفارق للعيش يلقى كما يلقى الرضيع من الفطام
وكم ليد النوائب من صريع بداء السيف أو داء السقام

ويبرز القدر مقترنا بالاستفهام في مراثي الشريف الرضي، كما في رثائه الذي يقول فيه:[١٣/ ٢:٣٥١-٣٥٢]

هل كان يومك إلا بعد أيام سبقت فيها بإنعام وإرغام
وهل أزالك عن هذا سوى قدر تناول الأسد من غيل وآجام

ويحاول الرضي في مراثيه استخلاص الدروس والعبر مذكرا بها بتكرار الاستفهام وبالأداة نفسها ولأبيات متتالية بقوله :

أين السرير وقد قام السماط له إجلال أروع عالي القد بسام
أين الجياد تنزى في أعنّتها يطلبن يوما قطوبا وجهه دام
أين الفيول كأن الممتطين لها على ذوائد اطواد وأعلام
أين الوفود على الأبواب مذكرة بالفرط من مجد أخوال وأعمام
أين المراتب ، والدنيا على قدم موقوفة بين أرماح وأقلام

والرثاء مديح ولكن للأموات لذا نجد الشريف الرضي يكثر من استعمال أسلوب الاستفهام في ذكر الموت، وما له من صلة بالدين كقوله مكررا أداة الاستفهام نفسها في ثلاثة أبيات متتالية في رثاء أبي اسحاق الصابي:

إذا الذي منع الفنيق هديره من بعد صولته على الاذواد
ماذا الذي حبس الجواد على المدى من بعد سبقته الى الآماد
ماذا الذي فجع الهمام بوثبة وعدا على دمه وكان العادي

ويتفرد الرضي بأصالة الطبع وروحه الإسلامية العالية وهو يذكر الصابي في مرثيته بصفاته المتفردة، ويستهل قصيدة أخرى في رثاء الصابي بالاستفهام قائلا:

أيعلم قبر بالجنينة إننا أقمنا به ننعى الندى والمعاليا

ويخاطب قبره في القصيدة نفسها متسائلا:

ألا أيها القبر الذي ضم لحده قضيبا على هام النوائب ماضيا
هل ابن هلال منذ أودى كعهدنا هلالا على ضوء المطالع باقيا

وللشاعر أبيات كثيرة يصور فيها نظرته للموت الذي أمدّ شعره بأصناف من الحكمة فالموت كسيد مطاع لا يدع مجالا لأي إنسان للركوع أمام سلطانه، [٣٤/١٠] إذ يقول في رثاء صديق له:[١٣ /٢: ٣٩٣]

قد مررنا على الديار خشوعا ورأينا البنى فأين الباني
وجهلانا الرسوم ثم عرفنا فذكرنا الاوطار بالأوطان
جمحت زفرة بغير لجام وجرت دمعة بغير عنان
التفاتا إلى القرون الخوالي هل ترى اليوم غير قرن فاني
أين رب السدير والحيرة البي ضاء أم أين صاحب الإيوان

ومن اقتران الاستفهام بالمعاني الدينية وبروز بلاغته في إيصالها استعمال الشاعر لهذا الأسلوب في طفياته وهي القصائد والأشعار المتضمنة وصفا لواقعة الطف وما جرى فيها من فاجعة حلت بالحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه منذ حلولها إلى الوقت الحالي، " فكانت محورا مهما في استظهار تفجع الشريف وحسرته وأمه وتوجعه مما حل بالحسين عليه السلام وهو بأسئلته هذه يريد ان يشارك الحسين عظيم مصيبته". [٧٨/٢٢]

وتعد قصائد الطف التي يرثي بها الشاعر إمامه الحسين عليه السلام خير دليل على عقيدته الحقّة وإخلاصه العميق لآل البيت وهم أساس الدين وعموده، وهي حافلة بالمعاني الدينية، اذ يتساءل في احداها مستنكرا ما حل بتلك الديار وذلك في قوله:[١٣ /١: ٤٠٨]

هل تطلبون من النواظر بعدكم شيئا سوى عبراتها وسهادها
لم يبق ذخر المدامع عنكم كلا ولا عين جرى لرقادها

ثم يكرر الاستفهام بعد أبيات معبرا عن لوعته وحزنه الشديد على ما حل بالدين باستشهاد الحسين عليه السلام بقوله:

أترى درت ان الحسين طريدة لقنا بني الطرداء عند ولادها
كانت مآتم بالعراق تعدها أموية بالشام من اعيادها

وقد أكثر الشاعر من استعمال الهمزة من أدوات الاستفهام في طفياته وفيها تظهر بلاغة أسلوب الاستفهام في شعر الشريف الرضي في إيصال المعاني الدينية التي تستعمل في التعبير عنها، فالاستفهام عن شيء دليل على اهتمام الذات بالجواب وهي في الوقت نفسه تعكس ما يدور فيها من أحاسيس ومشاعر وأفكار.

ويورد الرضي أداة الاستفهام ذاتها وهو يصف للحزن الذي الم به على حماة الدين عليه السلام بقوله:[١٣/١: ٤١١]

أما فارق الأحباب قبلي مفارق ولا شيع الاضغان مثلي بواحد

ثم يتعجب الشاعر بعد آيات في القصيدة نفسها من الظلم والجور الذي تعرض له ال البيت عليهم السلام من بني أمية وامتداد ذلك لعصر بني العباس وبالأداة نفسها، كقوله :

أالله ما تنفك في صفحاتها خموش لكلب من أمية عاقد

ويجاوز الشاعر استعمال الاستفهام متعجبا إلى استنكاره لظلم أهل البيت عليه السلام فقد جعله إحساسه بظلمهم حانقا غاضبا يكثر من تساؤلاته شاكيا غاضبا بقوله:[١٣/١: ٥١٦]

أكل يوم لآل المصطفى قمر يهوي بوقع العوالي والبواتير
وكل يوم لهم بيضاء صافية يشوبها الدهر من رنق وتكدير

إلى ان يصل إلى قوله متعجبا من همه وحزنه لحماة الدين وما نالهم من ظلم:

مالي تعجبت من همي ونفرته والحزن جرح قلبي غير مسبور
بأي طرف أرى العلياء ان نضبت عيني ولجلجت عنها بالمعاذير

ويصف شجاعة الحسين وبطولاته وهو يتساءل مستنكرا على نفسه ومتحسرا على مصاب إمامه عليه السلام بقوله: [١٣/٢: ١٦٤-١٦٥]

أتراني أعير وجهي صونا وعلى وجهه تجول الخيول
أتراني ألذ ماء ولما يرو من مهجه الإمام الغليل
قبلته الرماح وانتضلت في ه المنايا وعانقته النصول

فالشاعر بهذا الاستفهام المؤلم الذي يذكر فيه افضع اللحظات على قلب الحسين عليه السلام محاولا مواساته فكان تعبيره مفعما بالشعور الصادق، والإحساس النابض المعبر عن تلك اللحظات الأليمة، زيادة على ما في تكرار أداة الاستفهام من " تراكم الصور بتراكم الانفعال ، كما يعطي أيضا إيقاعا موسيقيا مضافا إلى الصورة ويجلب انتباه المتلقي إليه ". [٢٢/ ٧٨]

ويكرر استفهاماته ثلاث مرات، ولكن في بيت واحد هذه المرة في القصيدة نفسها بقوله:

كم إلى كم تعلو الطغاة وكم يح كم في كل فاضل مفضول

ويكثر الرضي من هذا التكرار للاستفهام في قصيدة أخرى قالها في الحائر الحسيني يرثي بها جده ويفتتحها بقوله: [١٣/١: ٢٧]

كربلا ، لا زلت كربا وبلا ما لقي عندك آل المصطفى
كم على تربك لما صرعوا من دم سال ومن دمع جرى
كم حصان الذيل يروي دمعهما خدّها عند قتيل بالضما

فالشاعر يتساءل عمن لم يتبع أهل البيت عليه السلام ليدل على أحقيتهم وارثهم عن رسول الله ص الداعي والمبشر والمنذر، إذ يستعمل الشاعر الاستفهام " ليوجه الأسئلة بالتتابع بهما إلى نفسه لينفس عن غضبه وأحاسيسه المتفجرة وأحزانه المتراكبة في صدره وهمومه بالمجد والعلياء "[٢٢/ ٧٩].

ويكثر الرضي من الاستفهام بأدوات أخرى في القصيدة نفسها غير الهمزة وهي أصل الاستفهام، كاستخدامه (أي) في بيان عظيم قدر أهل البيت أبا وجدا متعجبا مما نالهم وهم أعمدة الدين في قوله:

أي أب وجد يدعوهما جد يا جد أغثني يا أبا
يا رسول الله يا فاطمة يا أمير المؤمنين المرتضى
كيف لم يستعجل الله لهم بانقلاب الأرض أو رجم السما

ويتجاوز ذلك في القصيدة نفسها إلى تكرار أداة أخرى في ثلاثة أبيات متتالية بقوله:

أين عنكم للذي يبغي بكم ظل عدن دونها حرّ لظى
أين عنكم لمضل طالب وضح السبل وأقمار الدجى
أين عنكم للذي يرجو بكم مع رسول الله فوزا ونجاة

وقد يكون إكثار الرضي من الحديث عن الموت تعبيرا عن حالة التردد النفسي والحيرة التي يعيشها بين ما يتمناه ويحلم به وبين ما يتطلبه الواقع " على ان هذا السؤال، الذي يطرحه الرضي على نفسه بأشكال مختلفة، وفي مواقف متعددة، يبدو انه سؤال ثائر حالم، وان ثورته لا تعدو كونها ثورة عقل يصور ويفكر وثورة روح لطيف يثقله عبء كبير، لا ثورة رجل قوي يقف دون آماله نوع من التثبيط القاتل " [٢٣/٢٤]، وهذا الواضح في قوله: [١٣/ ١: ١١١]

متى أراني ودرعي غير محقبة اجرّ رمحي، وسيفي غير مقروب

وفي قصيدة أخرى يرثي بها الحسين عليه السلام في عاشوراء يتساءل عن فقد أقمار آل المصطفى نفسها متعجبا من ان يكون مصيرهم السيف وهم سادات أهل الأرض:[١٣/١: ٥١٨]

أكلّ يوم لآل المصطفى قمر يهوي بوقع العوالي والمباتير ؟

ثم يتعجب بعد ذلك من همومه وأحزانه وكيف تتوقف وجرحهم لا يبرأ ولا يندمل مدى الزمان بقوله :

مالي تعجبت من همي ونفرته والحزن جرح بقلبي غير مسبور
بأي طرف أرى العلياء ان نضبت عيني ولجلجت عنها بالمعاذير

ومن تتابع هذه الأسئلة نجد " انها أسئلة غاضبة حانقة على الأوضاع السياسية وما يلقاه الشاعر من مضايقات ، ويستمر الشاعر في نفث أحاسيسه الجياشة لهبا يوقد الثورة ليستحصل الثار من قتلة الحسين عليه السلام متمنيا ان يكون الزمام بيده " [٦٢/٢٢].

وفي الختام يمكننا القول: انه إذا كانت لغة المدح تتأثر تأثرا مباشرا بنظرة الشاعر إلى شخصية الممدوح، وما تحمله من صفات وخصائص وتتأثر بسياق المقام وبسياق المقال، فاننا نجد مثل ذلك الأمر للرثاء فله المقام ذاته، وقد كان للمعاني الدينية التي تشربها الشريف الرضي وسما بها خطابه الشعري دور

كبير في علو شانه وذياع صيته وانتشار أشعاره، وفي كل ذلك كان لبلاغة الاستفهام دورها في تلقي تلك الأشعار.

ONFLICT OF INTERESTS
There are no conflicts of interest

٢. المصادر

(١) لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، د . ت.
(٢) التعريفات، الشريف الجرجاني (ت ٨١٦هـ)، تحقي: محمد صديق المنشاوي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤.
(٣) كشاف اصطلاحات الفنون، التهانوي (ت ١١٥٨هـ)، منشورات شركة خياط، بيروت.
(٤) من بلاغة النظم العربي، عبد العزيز المعطي، عالم الكتب، بيروت، ط٢، ١٩٨٤.
(٥) السؤال أنماطه وخصائصه في الخطاب المكي، هادي شندوخ حميد، مجلة ذي قار، ع٣، م١،٢٠١١.
(٦) مغني اللبيب، ابن هشام الأنصاري، تحق: عبد اللطيف محمد الخطيب، التراث العربي، الكويت، ٢٠٠٠.
(٧) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني (٤٧١ أو ٤٧٤)، محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٥، ٢٠٠٤.
(٨) مقاربة دلالية في معاني الاستفهام البلاغية، السعيدة صغير، كلية الآداب الجديدة، AAM، ٢٠١٥.
(٩) البيان والتبيين، الجاحظ، تحق: عبد السلام محمد هارون، المجمع العلمي، بيروت، د. ت.
(١٠) الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي، عزيز السيد جاسم، دار الأندلس .
(١١) أكذوبتان حول الشريف الرضي النقي الزاهد، جعفر العاملي، المركز الإسلامي للدراسات، ط٢، ٢٠٠٤.
(١٢) عبقرية الشريف الرضي، زكي مبارك، كلمات عربية، القاهرة، ٢٠١٢.
(١٣) ديوان الشريف الرضي، شرحه وعلق عليه: مصطفى حلاوي، ط١، ١٩٩٩، دار الأرقم، بيروت.
(١٤) التقية في شعر الشريف الرضي والعباس بن الأحنف دراسة في ضوء الأسلوبية المقارنة، خضر الكيلاني، مجلة دراسات، م٣٢، ع١، ٢٠٠٥.
(١٥) فن المديح وتطوره في الشعر العربي، أحمد أبو حاقة، دار الشرق الجديد، بيروت، ١٩٦٢.
(١٦) الصناعتين، أبو هلال العسكري (٣٩٥هـ)، دار الفكر العربي، تحق: علي البجاوي ومحمد أبو الفضل، ط٢، د. ت.
(١٧) العمدة، ابن رشيق القيرواني، تحق:عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ٢٠٠١.
(١٨) العصر العباسي الأول، شوقي ضيف، دار المعارف، بيروت، ط١٦، ٢٠٠٤.
(١٩) بناء القصيدة عند الشريف الرضي من كتاب (الشريف الرضيّ– دراسات في ذكراه الألفيّة)، عناد غزوان، دار آفاق عربية، بغداد، ١٩٨٥.
(٢٠) مكانة الشريف الرضي بين شعراء المديح، محمد جواد، مجلة التراث الأدبي، ع ٦، ١٣٨٩ه.
(٢١) الفخر في الشعر العربي، سراج الدين محمد، دار الراتب، بيروت، ١٩٩٧.
(٢٢) الطفيات المقولة والإجراء، علي كاظم المصلاوي، العتبة الحسينية، كربلاء المقدسة، ط١، ٢٠١٢.
(٢٣) المديح في الشعر العربي، سراج الدين محمد، دار الراتب، بيروت، ١٩٩٧.
(٢٤) قراءة نقدية في حجازيات الشريف الرضي– ليلة السفح انموذجا، نادر عبد الكريم حقاني، مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ع ٨٩، آذار ٢٠٠٣.
(٢٥) الحماسة في شعر الشريف الرضي، محمد جميل شلش، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد .